لغة العرب

مجلة شهرية ادبية علمية تاريخية

في اول ايار (مايو) سنة ١٩٣٠

الى عكبرى وقنطرة حربى

ʿUkbarâ et Harbâ.

١ — حربى

سافرنا قبل اشهر الى ناحية « السميكة » اي دجيل القديمة ولبثنا فيها اربعة ايام عند ذي قربانا فالح افندي ابن حسن افندي العبيدي السرايلي ، وهو في السميكة معلم مدرستها الاول . وفي صباح احد تلك الايام امتطينا دراجتنا ودرجت بنا الى قنطرة حربى على نهر دجيل وكان بعض المطلعين قد وصفها لنا وذكر لنا ان عليها كتابة تاريخية ، اما العوام من اهل السميكة فيزعمون انها كتب عليها ما نصه « عمي يا خميس ، لا تكرب غير الطريس (١) او (٢) لو جارك (٣) الجور ، عليك بالثور (٤) عليك بالتبن ، اصفره ذهب وابيضه فضة ، والعنده عشا ليلة لا يلف بالدجيل » ويزعمون ان السبب الباعث على هذه الوصية

١) يريدون بالطريس: الارض المغمورة بالماء ، وفي القاموس « الطرطبيس كزنجبيل : الماء الكثير » وفيه «وطرفس ... والمورد : تكدر والماء : كثر » فلعله من احدهما .(الكاتب) (لغة العرب) . عندنا ان طريس تصحيف حربص بمعناه

٢) بضم الهمزة يريد بها عوام العراق «واو العطف» (٣) ارادوا بها «جار عليك ».

٤) اي اذا انقطع عنك الماء وجهدك الزمان فاستق على الثور بالدلو .

كثرة الظلم التي لاقاها الدجيليون من الحكام وتسخرهم للناس تسخر الحجاج للواسطيين ، وبقينا تدرج بنا الدراجة والريح مضادتنا ومتجهنا الشمال الشرقي من قرية السميكة حتى وصلنا الى قنطرة مبنية من الطابوق تحتها اربعة مجار عظيمة وكل منها قد طوق بطاق على الطراز العباسي . ولكن ثلاثة من المجاري قد طمرتها الرمال الراسية والاطيان اللازبة . ولم يبق لنهر دجيل إلّا مجرى واحد قد ضيقته الرواسب والادغال . ولما تخطينا القنطرة وجدنا طولها ٧٢ خطوة واذ خطونا عرضها ألفيناه ١٥ خطوة . وعلى محاط القنطرة الاعلى ما نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة . واقرضوا الله قرضا حسنا . وما تقدموا لانفسكم من خير تجدوه عند الله خيرا واعظم اجرا واستغفروا الله ان الله غفور رحيم . الذين ينفقون اموالهم بالليل والنهار ، سرا وعلانية فلهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون . ومن اراد الاخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فاولئك كان سعيهم مشكورا . امر بانشاء هذه القنطرة المباركة . تقربا الى الله تعالى الذي لا يضيع اجر من احسن عملا . وطلبا للفوز بجنات الفردوس التي اعدها للذين آمنوا وعملوا الصالحات نزلا ، سيدنا ومولانا الامام(١) . أامر المسلمين ووارث الانبياء والمرسلين وخليفة رب العالمين . وحجته البالغة على الخلائق أجمعين »

هذه الكتابة على الجانب الغربي . وعلى الجانب الشرقي :

« الذي ايد الله تعالى باعزاز نصره الدين وافرض [كذا] طاعته على الخليقة من العباد اجـ .. ا (٢) يعجز عنه حصر العادة ـ ابو جعفر المنصور المستنصر بالله ـ امير المؤمنين ، مكن الله له في ارضه تمكين الوارثين ورفع مقدس اعماله الصالحات الى عليين . ونشر (٣) بعـدله الزاهر في آفاق الارضين ، واوضح للخلائق بولايته سبيل الرشاد ومنهج الحق المبين ابن الامام السعيد البر التقي ـ ابي محمد الظـاهر بامر الله ـ ابن الامام السعيد الزكي الطـاهر الوفي ـ ابي العباس الناصر لدين الله ـ ابن الامام السعيد الزكي ـ ابي محمد الحسن المستضيء

١) لعلها «ولي امر المسلمين» (٢) لعلها (والحاضرين) او(المتحضرين) لوجود شدة في الاصل (٣) لعلها (بشر) من التبشير .

بنور الله ... الائمة الذين قضوا بالحق وكانوا يعدلون ، صلوات الله عليهم اجمعين وذلك في سنة تسع وعشرين وستمئة ، وصلى الله على سيدنا محمد النبي وآله الطاهرين ... » اه .

والعامة تسمي هذه القنطرة « جسر الحربى » .

٢ — عكبرى

وفي يوم آخر درجنا دراجتنا الى جهة عكبرى وهي في الجنوب الشرقي من السميكة وفي غرب قبر الشيخ « جميل » الذي هو في الجانب الغربي من دجلة قبالة قرية السعدية التي على الجانب الشرقي من دجلة ، قال ابن خلكان في (١ : ٢٨٩) من ترجمة ابي البقاء عبدالله العكبري ما نصه « والعكبري بضم العين المهملة وسكون الكاف وفتح الباء الموحدة وبعدها راء ، هذه النسبة الى عكبرى : وهي بليدة على دجلة فوق بغداد بعشرة فراسخ خرج منها جماعة من العلماء وغيرهم » وقال في ترجمة الامير سعدالملك ابن ماكولا علي بن هبة الله « وكانت ولادته في عكبرى في خامس شعبان سنة احدى وعشرين واربعمائة » وورد في القاموس «وعكبراء بفتح الباء وبقصر بلدة والنسبة عكبراوي وعكبري» قلنا وفي (١ : ٣٨٩) من تاريخ ابن خلكان « ووضع في يد كل واحد منهم طاس ذهب وزنه الف مثقال مملوء شرابا قطربليا او عكبريا » وهذه الحكاية من حوادث القرن الرابع للهجرة فعكبرى إذ ذاك كانت محمودة الشراب ، والان نعود الى سيرتنا الاولى :

ولما وصلت الى محطة السميكة لقطار مابين بغداد والموصل رأيت قبرا على شرق السكة الحديدية وعليه قبة فقط فسألت عن اسم صاحبه فقيل لي انه السيد محمد ابو الحسن ، وكنت في ذهابي الى قنطرة حربى صادفت مثله ، في شرق السكة ايضا فقيل انه « للشيخ سعدي » والاعراب تقول « الشيخ اسعدي » وكلتا القبتين مبنية من الطاباق .

ومن المحطة توجهت الى عكبرى وادرت محور دراجتي مدة تجاوز ساعة ونصفا حتى انتهيت الى قبر الشيخ « جميل » وحوله ابيات القوام وهو يزار وينذر له وعليه اعتماد السنيين في دلتاوة لابراء المرضى وازالة العاهات ،

ثم جنحت الى الغرب فوصلت الى انقاض عالية وطلول متبحثرة وطابوق مبثوث كثير وبين هذه الآثار أثر مجرى نهير يمر وسط هذه البلدة فوقفنا على قمة طلل عال واستنطقنا تلك الاطلال العافية عن زمان بهجتها والوان جمالها ونعيم حياتها وسألتها عن انهارها المطردة المتلالئة وبساتينها المدهامة المزهرة او المثمرة ورياضها ذات الخمائل والازهار واهلها المتنعمين الراكنين الى السعادة والاطمئنان والعلم والعرفان ، فكانها اجابتني اعتبارا واستعبارا ، بان اهلها تعاورهم انواع الفناء وطحنهم الدهر بأسنانه فصاروا عبرة لمن يعتبر ومزدجرا للذي يزدجر وقد خلف التراب الشراب والفناء الهناء والبلاء الرخاء والقبور القصور والدثور الظهور والاشواك الزهور .

وفي تلك الاراضي الى بغداد لا تعد الانهار ولا الانيهار ولا الترع لكثرتها وتقاربها ولكنها تدندن الريح بيبسها وتتداول الرمال بطونها وتتلاطم عليها حرارات الشمس واشعتها فتفيض سرابا هو المثل الاعلى للحياة الدنيا وتلطم متونها الدوامات لطم الظالم للمسالم ويمر بها قطار سكة الحديد وهي متحوية في منعرجاتها تحوي الحياة الكسير الظهور فتلتقي الدنيا والاخرة فتستخف الثانية بالاولى وتكبح من جماحها وتنقص من طماحها فعكبرى اليوم أهل لان تكون أنيسة للانبياء ومسلية الاتقياء ورادعة للادنياء .

وبعد ذلك أبنا من عكبرى الى بغداد فرأينا في غرب السكة قبرا يشبه القبرين المذكورين آنفا واسم دفينه « الشيخ ابراهيم » ويدعى بعض العامة أنه قبر « ابراهيم الامام العباسي » صاحب الدعوة العباسية وشهيد حران الذي قال فيه شبل بن عبدالله :

والقتيل الذي بحران اضحى ثاويا بين غربة وتناسي

وليس من دليل يؤيد تلك الدعوى وبعضهم يدعي انه قبر مصعب بن الزبير وابراهيم بن مالك بن الاشتر وهو الصحيح لان « مسكنا » هناك ، هذا مرادنا وبقية رحلتنا فلعل فيها فائدة .

مصطفى جواد

(لغة العرب) جاء في معلمة الاسلام مقالة للدكتور الاثري ارنست هرتسفلد فننقلها الى لغتنا ليطلع عليها القراء فتتم بها الفائدة ودونكها :

حربى

حربى (بالالف القائمة او بالياء المهملة) اليوم هي جسر حربى وهي اخربة في ارض دجيل على بعد نصف ساعة من غربي نخيل « بلد » على الضفة الغربية من عقيق دجلة المعروف بالشطيط في نحو ٣٤ درجة من العرض الشمالي :

الاسم والموضع من عصر الجاهلية . وقد ذكر ياقوت اسما قديما لهذا الموطن (معجم ياقوت ١ : ١٦٧) هو الاخنونية ويشبه ان يكون بابليا . وكانت ادارة الساسانيين تبدأ تخوم شمال سورستان ـ (او دل ايران شهر) وهي البلاد التي عرفت بعد ذلك باسم سواد العراق ـ من هذا الموطن حربى في طسوج مسكن (اليوم تل مسجن) ومن العلث (بالفتح وتقال بالكسر واليوم تلفظ العلث بالفتح) الواقعة في شرقيها وبازائها في طسوج بزرج شابور وفي الشمال كانت ترى تخوم كورة آثور . وبقيت هذه الحدود الى فجر العهد الاسلامي والى عهد العباسيين فقد كانت معروفة في حين مسح البلاد عمر بن الخطاب (طالع ابن خرداذبه ص ١٤ واليعقوبي ص ١٠٤ والمسعودي في التنبيه ص ٣٨ وياقوت ٣ : ١٧٤) ومن اقدم ماجاء ذكرها ما اوردة الطبري في (٢ : ٩١٦) ويتعلق باحداث سنة ٧٦ اذ سار شبيب الخارجي الى الحجاج وعبر دجلة بالقرب من حربى (وفي الكلمة جناس اذ حربى تجانس حرب في اللفظ) وكان في حربى عدة مناسج للثياب القطنية الغليظة التي كانت تحمل الى سائر البلاد (راجع معجم ياقوت ٢: ٢٣٥ ومراصد الاطلاع ص٢٩٥) والسهل الذي يرى اليوم في ذلك الموطن كثير الشقف(كسر الخزف) وهو مما يدل على ان صناعة الخزف كانت منتشرة فيها كل الانتشار وكانت هذه السلعة تشبه سلعة الرقة وترجع الى المائة الثانية عشرة والثالثة عشرة للميلاد .

لما تحولت دجلة عن مجراها في صدر خلافة المستنصر بالله وغادرت مسيلها في اعيلى حربى لتجري في موطن نهر القاطول ابي الجند وهو مجرى دجلة اليوم شرع الخليفة في اعمال الكري (شق الانهر) ليسقي من جديد ديارا عطشى . ومن اعماله نهر دجيل الحالي الذي حفره هو بلا ادنى شك . وحفر ايضا نهر المستنصر في اعلى حربى وبنى القنطرة العظمى القريبة من حربى ولهذا عرف

المحل بعد ذلك بجسر حربى . تلك اعمال تدل على ما كانت عليه من الجلالة .

وكان قد صور الجسر تصويرا شمسيا ج . ف جونص واعيد طبعه في المجموعة المسماة بالانكليزية ما معناه « نخب من مذكرات حكومة بمبي » المجلد ٤٣ (سنة ١٨٥٧) ثم صورته انا تصويرا شمسيا ايضا لكن بنوع اشد اتقانا والجسر محكم البناء من الاجر وطوله ٥٥ مترا في عرض قراب ١٢ مترا ويقوم على اربعة عقود وثم كتابة طولها مائة متر تمتد على الجانبين وتاريخ بناء الجسر سنة ٦٢٩ من الهجرة وهذه الكتابة مفيدة جدا لما فيها من التفاصيل التي تكاد تكون كفرا في نظر السنة (كذا) ومما يميز هذا السهل سهل الاخربة القبة المبنية على قبر هناك وهي ترى من بعيد ويقال ان المدفون تحتها الشيخ او السيد سعد .

القوق ومرادفاته

Le Pélican et ses Synonymes.

قال ابن منظور في ديوانه لسان العرب : القوق : طائر من طير الماء طويل العنق قليل لحم الجسم وانشد : كأنك من بنات الماء قوق » وكذا ورد في العباب وحياة الحيوان الكبرى للدميري والعباب لكن هذا التعريف غير كاف بنفسه ليطلعنا على حقيقة هذا الطائر والكلمة واردة في التوراة التي نقلها سعديا الى العربية وسعديا توفي في سنة ٩٤٢ م اما ابن منظور فتوفي في ١٣١١ م . والقوق واردة في عدة مواطن من نص التوراة منها في المزمور الـ ١٠١ في الاية الـ ٧ وهذا نصها : « شابهت قوق البرية صرت مثل بومة الاخربة » واسمه بالارمية كذلك وجاءت ايضا في التوراة المسماة بالفشيطتا « اي البسيطة » وهي من صدر المائة الثانية للميلاد . ويراد بالقوق الحوصل المعروف عند السلف باسم البجع وله اسماء كثيرة تختلف باختلاف الديار . منها : العلجوم والكي (بضم الكاف) وجمل الماء وابو جراب وابو قربة . والعراقيون يسمونه اليوم « نعيج الماي » وهو تصغير علجوم مع بعض تصحيف . ويدعي بعضهم انه مصغر نعجة الماء وهو بعيد في نظرنا . ومن اسمائه : السقاء وجمل البحر وهو ليس المسمى بابو بلنطر او ابو سعن وكان اهل البطائح يسمونه في عهد العباسيين بالبيضاني .